إعادة الكتابة ومحو الذاكرة
دراسة كوديكولوجية
عن ظاهرة الطّرس في التراث العَرَبيّ

د. أحمد الحصناوي
المجمع العلمي العراقي - بغداد

الملخص

تُعدّ عملية الطّرس ظاهرة كوديكولوجية بارزة في تاريخ المَخطُوط العَرَبيّ والإسـلَاميّ، تقوم على محو نصوص سابقة وإعادة الكتابة على الرقّ أو الوَرَق من جديد. نشأت هذه الممارسة أساسًا بسبب ندرة مواد الكتابـة وغـلاء تكاليفها، غير أن دلالاتهـا لا تقتصر على الجانب الاقتصادي، بـل تعكس علاقة معقّدة بين النُّصوص والمجتمع الذي أنتجها.

تشـير المَصَادر العَرَبيّة المبكرة إلى انتشـار الطّرس في المدن الكبرى ضمن النشاط الثَّقَافيّ والإداري، ولم تقتـصر هـذه العملية على النُّصوص الإدارية، بل شـملت أحيانًا نصوصًا علمية وأدبيـة ودينية، لذلك كان الطّرس وسـيلة سـاعدت على استمرار حركة النسـخ والتأليف في ظل قلة الموارد. لكنه في الوقت نفسه مثّل محـوًا للذاكرة النصية حين أزيلت نصـوص قديمة لتحل محلها أخرى. ويعكس هذا الفعل أحيانًا مفاضلة ثقافية أو دينية بين نصوص تُعدّ أكثر شرعية من غيرها، وقد كشفت التقنيات الحديثة للفحص الطيفي عن نصوص سفلى مطموسة في أطرَاس مكتشفة مثل تلك التي اكتشفت في صنعاء وسيناء. وبذلك يُعدّ الطّرس مدخـلًا مهمًا لفهم تاريـخ الكتاب المَخطُوط وإنتـاج المعرفة والتفاعل بين الـضرورات التقنية والخيارات الثَّقَافيّة في الحضارة الإسلَاميّة.

الكلمات المفتاحية: الطّرس، الكوديكولوجيا، الذاكرة، التراث العَرَبيّ، المَخطُوطَات.

المَـدْخَـلُ:

يُعَـدّ الطّـرس مـن الظواهـر الكوديكولوجية اللافتـة في تاريخ الكتـاب العَرَبيّ والإسـلَاميّ، إذ ارتبطت به ممارسـات إعـادة الكتابة عـلى الرقّ أو الـوَرَق بعد محو نصوص سـابقة واسـتبدال أُخـرى بهـا. وإذا كان الطّرس في أصله ممارسـة تقنية فرضها شـحّ مواد الكتابـة وغلاء تكاليفها، فـإن أبعـاده الثَّقافيّـة والمعرفية تتجـاوز البعد الاقتصادي إلى ما هو أعمق، إذ يكشـف عن علاقة معقّدة بين النُّصوص والمجتمعات التي أنتجتها.

لقد نقلت إلينا المَصَادر العَرَبيّة المبكرة شواهد متعددة عن انتشار الطّرس في المدن الكبرى، وهو ما يشـير إلى حضور هذه الممارسة في قلب النشاط الثَّقَـافيّ والإداري. ولم يكـن الطّرس مقتصرًا على محـو نصوص إداريـة أو عابرة، بل امتـد أحيانًا إلى نصـوص علمية وأدبية ودينيـة، ما جعل أثره المعرفي يتجاوز حدود الضرورة المادية.

وهنا يبرز الطّـرس كظاهرة محمّلة بالدلالات؛ فهو مـن ناحيةٍ وسـيلة للإنتاج المعـرفي، إذ مكّن من اسـتمرار حركة التأليف والنسخ في ظل ندرة المـوارد، لكنه مـن ناحية أخرى يُجسّـد فعلًا من أفعـال محو الذاكرة النصية. فكثير من النُّصوص التي طُمست كانت كتب حكماء أو مؤلفات علمية وأدبيـة، أُقصيت لصالح نصـوص أخرى وُصفت بأنها أكثر شرعية في الوعي الديني أو السـلطاني. ومن هذا المنظور، يعكس الطّرس جانبًا من الجدل الثَّقَـافيّ بـين العلـم والدين في تلـك الحقبة، حيث تتجسّـد المفاضلة بـين نصوص تُحفـظ وأخرى تُمحى في عملية مادية ملموسـة على صفحة الرق. إنّ التأمل في الأطرَاس المكتشـفة، سواء في صنعاء أو سـيناء أو في الخبايا المختلفـة، يفتح لنا نافذة عـلى هـذا العالم النـصي المتحـوّل. فقد كشـفت تقنيـات الفحـص الطيفي الحديثـة عن نصوص سـفلى مطموسـة، بعضهـا ذو طبيعـة دينيـة، وبعضها ينتمـي إلى دوائر العلـم والفكر القديم، بمـا يبرهن على أنّ الطّرس لـم يكن مجرد حادث عرضي، بل كان ممارسـة متجذّرة في بنية الثقافة الكتابية الإسـلَاميّة. وعليه، تسـعى هذه الدراسة إلى تنـاول الطّـرس لا بصفته أثـرًا كوديكولوجيًا وحسـب، بل بوصفه مدخلًا لفهـم تاريخ الكتاب وإنتـاج المعرفة في الحضارة العَرَبيّة والإسـلَاميّة. فهو ظاهرة تقف عـلى تقاطع الضرورات التقنية والخيـارات الثَّقَافيّة، وتكشـف كيف أنّ الاقتصاد المـادي للكتابة قـد تماهى مع الاقتصـاد الرمزيّ للمَعرفة، ليصبحَ في النهاية صورةً معقّدة لمسـارِ النُّصـوص بـين الحفظ والطمس، وبـين التدوين والمحو[1].

الطّرس في اللُّغَةِ:

طَـرَسَ Palimpsest وتعنـي مَحـا أو أزال الكتابـة عـن شيءٍ مكتوب. وغالبًا ما تُسـتخدم في سياق محو الكتابة من الرقّ أو الوَرَق أو غيرها من

(١) هـدف هذا العمل هو فتح مسـار بحثي جديد يُمهّد لمسـوحات ميدانيـة لاحقة، قد تكشـف عـن طبقات نصيّة مَطموسـة في عمل استكشـافي يرمـي إلى تتبّع مخطوطات الطِرس في المكتبـات العراقية، تلك التي ما يزال كثـير منها غير مفحوص أو غير موثّق علميًا حتـى اليوم. وبما أن عُمر أرشـيف العراق المخطوط يمتد لأكثر من قرن، ويضم مجموعات غنية، فإن هذا الجهد يمهّد لإطلاق مشروع علمي أوسـع يسعى إلى توثيق الطروس، وتحليلها وكشف نصوصها السفلى باسـتخدام أحدث التقنيات، بما قد يفتح الباب أمام اكتشـافات علمية ونصّيـة ذات قيمة كبرى في التراث العربي والإسلامي.

حوامل الكتابة، ليُعاد اسـتخدامه. وَالْجمع أطرَاس وطُـروس. وفي لغة مرادفة (الطِّلْـسُ) و(الطَّمْسُ). و(طَرْمَـسَ) أي: مَحَا. و(التَّطْريـسُ) الفِعْلُ بمحو الكتابة، والكتابة على المكتـوب المحو[٢][١]. ليكون مـا يعرف بالاصطـلاح الحديث: (النـص العُلويّ) و(النص السُفليّ).

والطّـرس مصطلـح يقابلـه باليونانيـة القديمـة (الپاليـمپسـست palimpsest): (παλίμψηστος palímpsēstos)، وتعنـي بالمعنـى الدقيـق: (الذي كُتـب عليه مـرة أخرى). وهي كلمة مركبة من جزءين (παλίν) (palim): وتعني (مرة أخـرى). والجزء الأخر يصف العملية (ψάω) (psao) وتعني (كشط) أو (مسح)[٣][٢].

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة: طرس. ويُنظر كذلك: بنـين وطوبي: معجـم مصطلحات المخطـوط العربي ص١٤٩، جاسـك: تقاليد المخطوط العربي ص١٩٨. وذكـر الصاغاني في العباب الزاخـر، مادة طرس عن: (رؤبة يصف الديار:

كأنَّهُـنَّ دارِساتٍ أطْلاسْ
من صُحُفٍ أو بالياتٍ أطْرَاسْ

وقـال ابـن دريد: قال قوم: الطِّـرْسُ: الصحيفة بعينها، والطِّلْسُ: الذي قد مُحِيَ ثم كُتِبَ.
وقـال الليث: الطِّرْسُ: الكِتاب المَمْحو الذي يُسْـتَطاع أن تُعادَ عليه الكِتابة.
وقـال غـيره: الطِّرْسُ - بالفتح -: المَحْـوُ، يقال: طَرَسَ، يَطْرِسُ، طَرْسًا. والطِّرْسُ، والطِّلْسُ، والطَّمْسُ: أخوات، قال رؤبة:

فَحَيِّ عَهْدًا قد عَفا مَدْروسا
كما رأيتَ الوَرَقَ المَطْرُوسا

... وقال ابن عبّاد: طَرَّسَ فلان بابه تطريسًا: إذا سَوَّدَه. وطَرَّسْتُ الكِتاب: إذا أعَدْتَ عليه الكتابةَ).
وذكر السـمين الحلبي عـن (القِرْطاس) في الدر المصون ٤/٥٤٣: (والقِرْطاس: اسـم أعجمي معرَّب، ولا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوبًا وإلا فهو طِرْس وكاغَد).

(3) The New Encyclopaedia Britannica palimpsest

تاريخُ الطّرس في الحضارةِ العَرَبيّة:

عَبِيدَة السَّـلْماني (ت٧٢هـ/ ٦٩١م) له اشـارة في الأوقـات المبكرة عن ممُارسـة طَـرْس النُّصوص بتوجيهـه إبراهيـم النَّخَعـي (ت٩٦هـ/ ٧١٤م) لعملية التَّطْريـس وتحرير النُّصـوص أثر الرقابة الفكرية والدينية من تدويـن الحديث. (أن الهَجَنَّعَ بن قيس قـال: رأيت إبراهيم النخعـي يأْتي عُبَيْدَةَ فِي الْمَسَـائِلِ فَيَقُـولُ عبيدةُ: طَرِّسْـهَا يـا إبراهيم, طَرِّسْـها)[٤][٣]. فيُعد هذا مثالاً مُمَيّزًا على استخدام المَخطُوطَات على أنها موادّ قابلة لإعادة الاسـتخدام في التدوير المعرفيّ.

عَّبِيدَة والنّخَعي يمثلان نموذجًا حيًا لاسـتخدام الكلمـة في تطبيق عملي بإزالـة الكتابة القديمة من الصحيفة ليُكتب عليها من جديد. التعبيرّ التطبيقي لـلإرث اللغوي هـو أيضًا متعلق بمفهـوم الطّرس أو محو الكتابة والمعرفة ويسـهم في مراحل الفهم، فمصطلـح (طَلَـس): ويعني كِتَابًـا قَدْ مُحِـيَ وَلَمْ يُنعَمْ مَحْوُه فَيَصِيرُ طِلْسًـا، إي مُحـيَ جزئيًا. وإذا مَحَوْتَ الْكِتَابَ لِتُفْسِـدَ خطَّهُ يقال: (طَلَسْـتَ). أما إذا أَنعمتَ مَحْوَهُ يقال: (طرسـتَها) فتعني محوتها ناعمًا ومحوتها بالكامل (لتهيئتها مجددًا)[٥]. ومع ذلـك فإن المفردات تفرق بين النص الذي مُحيَ على نحوٍ غير فعال (طَلس)، والنص الذي محيَ بكفاءة (طَـرَسَ). ونُقـل في الأثـر أن النَّبِـيِّ مُحَمَّد (ص) أَمَرَ بطَلْس الصُّـورِ الَّتِي فِي الْكَعْبَةِ، أي: بطَمْسِـها ومَحْوِهـا[٦]. هنـاك العديد من المصَـادر التاريخية

(٤) الخَطَّابي: غريب الحديث ٣/٢٥.
(٥) ابن منظور: لسان العرب، مادة: طلس. كذلك: جاسك: تقاليد المخطوط العربي ص٢٠٠.
(٦) مسـلم: الصحيح، بَـابُ الْأَمْرِ بِتَسْـوِيَةِ الْقَبْرِ ٢/٦٦٧ (٩٦٩). ابن هشام: السيرة ٤/٨٧٠.

التي تذكر أمر النبيّ مُحَمَّد (ص) بطَلْس الصُّورِ في الكعبة مثل كتب الحديث التي تذكر تفاصيل حول هذا الحدث، وكتب السيرة التي توفر سياقًا تاريخيًا حول الحدث. هذه المَصَادر توفر نظرة ثاقبة في الأحداث التاريخية الهامة في الإنتاج المعرفي وتكوينه في الأوقات المبكرة للإسلام ونشوء المَخطُوط العَرَبيّ.

كتب الحديث مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم تُعدّ مَصَادر موثوقة للأحداث المبكرة، بينما كتب السيرة النبوية مثل سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد توفر تفاصيلَ حول تلك الحقبة، كتب التاريخ الأخرى مثل تاريخ الطبري وكتب المعارف العامة مثل كتاب الفهرست لابن النديم تُعدّ مَصَادر قيمة لفهم السياق التاريخي والسياسي والديني للإنتاج المعرفي لتلك الحقبة.

أدبيات المَصَادر العَرَبيّة تشير إلى أن هناك عددًا كبيرا من المَخطُوطَات التي خضعت لإعادة الكتابة بمفهوم الطّرس أو المحو وإعادة الاستخدام، لاسيَّما في العصور الإسلَاميّة المبكرة. ورغم أن مصطلح (طِرْس) لم يرد بصيغته الصريحة، لكنَّ المعنى المرتبط به (أي محو الكتابة أو طمسها) ورد في أكثر المواضع. فلا توجد رواية في الأوقات المبكرة تذكر (الطّرس) حرفيًا، لكن توجد إشارة صريحة إلى محو أو طمس، وهي تحمل المعنى المجازي لـ(طَرْس) المعرفة.

إن السياقات العملية لـ(الطّرس) كرواية أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (ت٧٤هـ/٦٩٣م)، توضح استخدامًا فعليًا لهذه العملية في ذلك الزمن ((عَنِ النَّبِيِّ (ص) قَالَ: (لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ))[٧]. و(المحو) هنا يدخل في سياق لغوي تطبيقي توثيقي لوصف عملية إعادة الكتابة على الصحيفة إثر الرقابة الفكرية والدينية. وهي عملية إزالة الكتابة (الحبر) بطريقة من الطرق عن الوَرَق أو الجلد أو أحد الحوامل[٨][٧]. وهو ما يقرب من مفهوم (الطّرس) وهذا العمل يكشف عن سلوك عملي وثقافي في العصور المبكرة، مما جعل الرقّ (الجلد) مَجسّدًا للحياة المعرفية المتجددة. فيضفي هذا المفهوم طابعًا رمزيًا: فنحن لا نحذف النُّصوص فقط، بل نعيد كتابتها، نجدّدها، ونعيد توظيفها.

تفتح لنا نصوص فقهية آفاقا مهمة لفهم الموقف الفقهي والمادي من ظاهرة الطّرس في الفكر الإسلَاميّ المبكر، كما تعكس وعيًا عمليًا وتقنيًا بقيمة مواد الكتابة في القرون الأولى للهجرة، ويُقدِّم نص السجستاني (ت٣١٦هـ/٩٢٩م) في كتاب (المصاحف) مثالًا دالًا على التداخل بين الوعي الفقهي والتقني في التعامل مع المواد الكتابية، إذ يروي : (...عن سفيان [ت١٦١هـ/٧٧٨م]، وسئل عن الكتاب يكون فيه التوراةُ والإنجيل أو نحو ذلك؟ قال: إذا كان لا يُدرى ما هو، محاهُ وانتفعَ بصحيفته)[٩]. فعبارة (محاهُ وانتفعَ بصحيفتِه) تدلُّ على فعل فيزيائي أو كيميائي مباشر للطمس أو الإزالة (المحو)، والنص يُشير إلى فعل مألوف ومشروع ضمن حدود معينة، وهو جوهر عملية الطّرس[١٠].

---

(٧) مسلم: الصحيح، بَابُ التَّثَبُّتِ فِي الْحَدِيثِ وَحُكْمِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ ٤/٢٢٩٨ (٣٠٠٤).

(٨) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مادة (محو). كذلك: يُنظر: بنين وطوبي: معجم مصطلحات المخطوط العربي ص٢١٢، جاسك: تقاليد المخطوط العربي ص٢٨٤.

(٩) السجستاني: المصاحف ١٩٥.

(١٠) في المقابل، نجد بعض الاتجاهات الفقهية المتحفظة

الطـرُوسُ في الكُشُوفاتِ الحديثة:

تُظهـر أطرَاس قديمة مكتشـفة موقفًـا حزينًا تجـاه طمـس العلوم القديمـة لصالـح النُّصوص الدينية، يعكس تأثير الجدل الثَّقافيّ بين العلم والدين في تلك الحقب، كما يُـبرز أهمية كتب الحكماء التي فُقدت بسبب عملية الطّرس، التي أسهمت في ضياع عددٍ من النُّصوص العلمية والفلسفية. واليوم يبدو محو نـصٍّ قديم خسـارةً لا تُعوض، لكنْ لناسـخ القرن الثامـن، كان ذلك عملًا مـن أعمال التفاني، بل مقياسٌ للتقدم - فقد اختفى نصٌّ عتيق، وبقيت مَخطُوطةٌ مقدسةٌ ستُثري حياةً روحيةً.

في أثنـاء أعمـال تحديـث مكتبة دير القديسـة كاتريـن في جنـوب سـيناء- التي تُعد أكـبر مكتبة مسـيحية، والأهم بعد مكتبة الفاتيكان- المسـجَّلة ضمـن قائمة الـتراث العالمـي، عثر الرهبان سـنة (٢٠١٧م) عـلى أقـدم نصّ في الدير، حيث كشـفت تقنيـات التّصويـر عـن تفاصيـل كتابـات باللغة اليونانيـة القديمـة في طرس منسـوب إلى الطبيب اليوناني الشـهير أبقـراط Hippocrates (المتوفى نحو ٣٧٠ ق.م). وقد طُمست نصوصه الأصلية من أجل تدوين نصـوص الإنجيل عـلى أوراقها باللغة العَرَبيّة. ويُعتقد أن النُّصوص المطموسة تمثل أقدم الأبحـاث المكتوبة في الحقبة التي عاشـها المؤلف في العـصر الكلاسـيكي اليونانـي، وتتضمـن كتاباتٍ ووصفاتٍ طبية ورسومًا لأعشاب، من بينها وصفة للعـلاج من لـدغ العقـرب. ويذكر الأب جاسـتين، أمين مكتبة دير القديسـة كاتريـن: (ما لفت انتباه الدارسـين إلى هذه المَخطُوطـة، التي تضم الأناجيل الأربعة، أن الخط العَرَبيّ الذي كُتبت به يكشـف أن تاريخهـا يعود إلى الحقبة ما بـين عامي (٧٥٠ إلى ٨٠٠ ميلاديـة [١٣٣ إلى ١٨٤هجـري])، وفي ذلك الوقـت كان من المسـتحيل العثور على رقاع جديدة للتدويـن عليهـا، لذا اضطـر المُحرر إلى اسـتعمال قطعٍ مـن مَخطُوطَـات أقـدم، بعضهـا باللاتينية وبعضها باليونانية، واكتشفنا أن معظم النُّصوص اللاتينيـة هي لأبقراط). وقد تنامت ظاهرة الطّرس بعد ازديـاد الحاجة إلى ترجمة النُّصـوص الدينية مـن السريانية واليونانيـة إلى العَرَبيّـة، حين تبنّى المسيحيون اللغة العَرَبيّة لغةً أمًّا بعد وصول الحكم العَرَبيّ إلى المناطق المقدسة.

وعند مطالعة المَخطُوطة المُكتشـفة، تظهر آثار الكتابات القديمة بخطٍ باهت أسـفل النص العَرَبيّ الواضح، المكتوب بالخط الكوفي العتيق، كما تَظهر إحـدى الصفحـات وقـد خيطت مـن عـدة رقاع. وأضاف الأب جاسـتين: (في واحـدة من الصفحات لاحظنا شيئًا أشـبه بالبقع، لكن باستخدام تقنيات التصويـر المتعـدد الأطيـاف وتفسـير النُّصـوص السـفلى، تبـيّن أن تلك البقع ما هي إلا رسـم دقيق لعشـب مصحوب بنص يوضح كيفية اسـتخدامه لعلاج لدغ العقـرب). ويعتقد الدارسـون أن كثيرًا من الأبحـاث الطبية اسـتُقدمت إلى الدير الكائن في وادٍ ناءٍ ومحاط بجغرافيا وعـرة، ليتعرّف الرهبان على أسـاليب العلاج بالأعشاب الصالحة للزراعة في

التـي شـددت على حرمـة محو نصـوص القـرآن أو الحديـث، احترامًـا لحرمتهـا، كمـا ورد عـن عدد من المحدثـين والقراء الذين نهوا عـن كتابة النصوص غير الشرعية عـلى رق كُتب فيه كلام اللـه تعالى (الخطيب البغدادي: تقيد العلم ص٣٢، ٤٢، ٥٩). وهذا ما يؤكده نص الإشـبيلي في كتاب التيسير (ص٢٣)، حين أوصى المسفرين (المجلدين): بأن لا يُبطِّنوا أغلفة الكتب بآياتٍ مـن كتاب الله أو أحاديـث نبيه (ﷺ) فإن فعل المجلد ذلك فيبطن من نفس جنس الكتاب، وأما سائر العلوم دون الشرعية فلا بأس باستخدامها.

جنوب سيناء[١١].

ورقة من الإنجيل باللغة العَرَبيّة (النص العلوي) – على اليسار– تعود إلى القرن الثامن للميلاد، ويظهر في التصوير المتعدد الأطياف للورقة نفسها (النص السفلي) – على اليمين– صورة توضيحية من عشبة طبية يعود تاريخها إلى القرن الخامس للميلاد تنسب إلى الطبيب اليوناني الشهير أبقراط[١٢].

وبجهد بحثي سابق، أُجريت في نفس المكتبة بين سنة (١٩٩٨م و٢٠٠٨م) أعمال علمية، استخدمت فيها تقنيات التصوير المتعدد الأطياف للكشف عن طبقات الكتابة في مَخطُوطة منسوبة إلى عالم الرياضيات اليوناني أرخميدس Archimedes (قتل:٢١٢ق.م). وتبيّن أن المَخطُوطة، التي نُسخت في القرن العاشر الميلادي (من أواخر القرن الثالث إلى أواخر القرن الرابع الهجري)، كانت قد مُحيت نصوصها الأصلية في القرن الثالث عشر (من أواخر القرن السادس إلى أواخر القرن السابع الهجري) على يد رهبان مسيحيين، لِيُعاد استخدام رقاعها في تدوين نصوص دينية لاحقة[١٣][١٢].

وتُعدّ مكتبة دير القديسة كاترين في سيناء من أغنى الخزائن العالمية بالمَخطُوطَات الممسوحة. فإلى جانب المَخطُوطَات الشهيرة التي اكتُشفت حديثًا – كمجموعة أبقراط وأرخميدس – تضمّ المكتبة أيضًا ما يزيد على (١٧٠) مَخطُوطة طُمست نصوصها الأصلية ثم أُعيد التدوين عليها، وهي غالبًا ما تكون مجرد شظايا أو مَخطُوطَات متفرقة، مكتوبةٍ بعشر لغات مختلفة، منها اليونانية والسريانية والعَرَبيّة واللاتينية. وقد أمكن الحفاظ على هذه الكنوز بفضل تخزينها في مستودع مغلق لم يُفتح حتى سنة (١٩٧٥م)، وهو ما يُعرف اليوم باسم (المكتشفات الجديدة) في دير القديسة كاترين. وعند تقييم هذه المجموعة، سجّل الباحثان بول جيهين Paul Géhin، وستيغ فرويشوف Stig Frøyshov أهمية هذا الكشف بوصفه أكبر تجمع منفرد للمَخطُوطَات الطّرسية التي وصلتنا من العصور البيزنطية والإسلَاميّة المبكرة، مما وفّر قاعدة مادية نادرة لدراسة تطور تقنيات الطمس وإعادة التدوين عبر العصور[١٤].

ومن الشواهد المادية البارزة على ظاهرة الطّرس في التراث الإسلَاميّ ما عُرف بـ (طرس صنعاء)، الذي يُعدّ من أقدم الشواهد المادية على إعادة استخدام الرقّ في الكتابة القرآنية. وقد تم اكتشاف هذا الطّرس ضمن المخزون الضخم من المَخطُوطَات القرآنية في الجامع الكبير بصنعاء أثناء أعمال الترميم سنة ١٩٧٣م، حيث عُثر على آلاف الرقوق والقصاصات التي كانت محفوظة في سقيفة مهجورة من الجامع، فيما عُرف لاحقًا بـ (مخزون صنعاء).

أشهر هذه المَخطُوطَات وأكثرها دراسة هي المَخطُوطة المسجَّلة في دار المَخطُوطَات بصنعاء برقم ٠١ DAM-٢٧,١، التي تمثل نموذجًا واضحًا

(11) New Light on Old Manuscripts P75.

(١٢) حقوق هذه الصورة محفوظة لدير القديسة كاترين – سيناء.

(13) Powell: Recovering Hidden Text.

(14) New Light on Old Manuscripts P14.

للطـرس القرآني. تتألف هـذه المَخطُوطة من ثمانٍ وثلاثـين رقعة، كتبت في الأصـل بنص قرآني مبكر (الطبقة السـفلى)، يرجع تأريخها إلى أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثاني للهجرة/ القرن السابع أو الثامـن للميلاد، ثم مُحيت كتابتها الأصلية وأعيد تدوين نص قرآني لاحق فوقها (الطبقة العليا).

تؤكد الدراسـات التي أجراها عدد من الباحثين أن طبيعة الرقّ المستخدم في طرس صنعاء، وطرق المحو وإعـادة الكتابة الظاهرة فيـه، تُعد من أقدم الأدلة الكوديكولوجية على ممارسات إعادة التدوين في الثقافة الإسلَاميّة. ويمثل طرس صنعاء – ضمن آلاف المَخطُوطَـات المكتشـفة في الجامـع الكبير – لحظة مادية نادرة تكشـف تطور الكتابة القرآنية

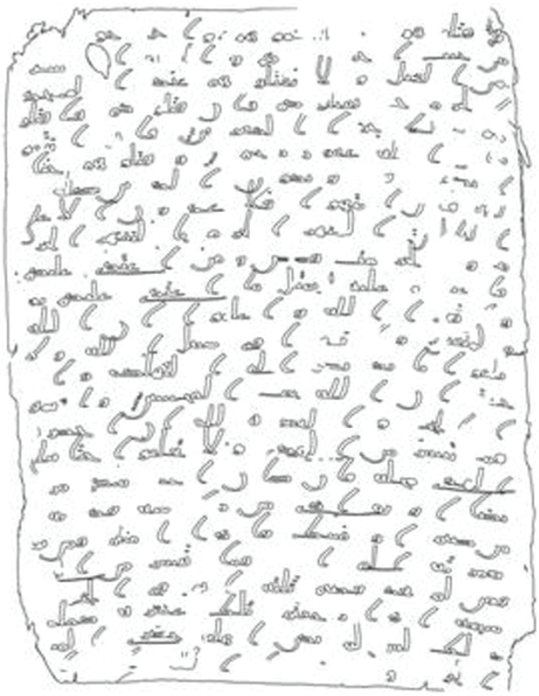

في صدر الإسـلام، وتدلُّ على وعي مبكر بقيمة الرقّ كدعامـة باهظة الثمن يعاد اسـتخدامها، بما يربط بـين الظاهرة التقنية للطرس والممارسـات الدينية والعلمية في ذلك العصر[١٥].

تُظهـر الجهة اليسرى من الصفحة جزءًا من الآيات (٢٦٥–٢٧٢) مـن سـورة البقـرة، مكتوبـة بالخـط الحجازي النفيس تعود للقرن الأول الهجري/السـابع الميـلادي. أما الجهة اليمنى، الملتقطـة بتقنية التصوير الفلـوري بالأشـعة السـينية، فتُـبرز النـص المحو في الأسـفل من الآيات (١٩١–١٩٦) من السـورة نفسها، والمحفوظة حاليًا في جامعة ستانفورد[١٦].

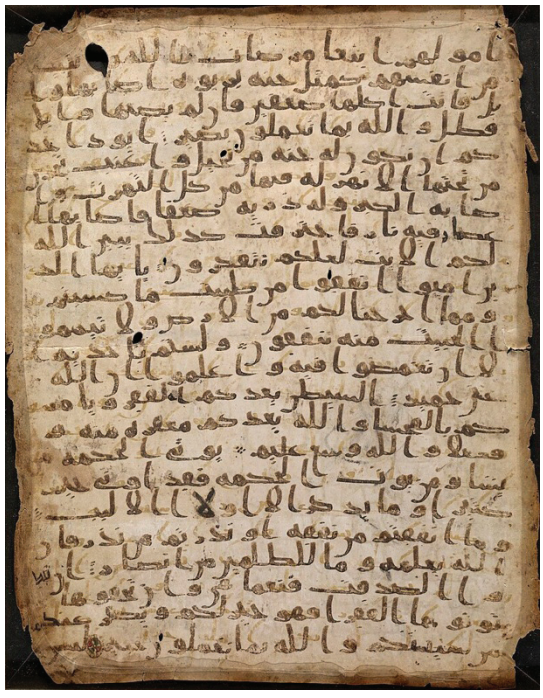

(١٥) ضمن كتاب
Fedli: Deposits of Texts and Cultures in Qurānic Palimpsests.P259 New Light on Old Manuscripts.

(١٦) حقوق هـذه الصور محفوظـة Stanford University، ويكيبيديا: (Sanaa manuscript).

الطّرس في مَصَادر التُّراثِ العَرَبيّ:

لم تكن الرقابة الفكرية والدينية العامل الوحيد لعملية طرس المَخطُوطَات، بل هناك عدد كبير منها خضعت لإعادة الكتابة أو المحو وإعادة الاستخدام، خاصة في العصور الإسـلَاميّة المبكرة بسـبب ندرة الرقّ وغلاء ثمنه. يشـير ابـن النَّدِيم (المتوفى حوالي: ٤٣٨هـ/١٠٤٧م)) بوضوح إلى حادثة مهمة على ممارسة الطّرس في الثقافة العَرَبيّة، بعض الوثائق القديمـة كانـت تُمحـى وتُكتـب فوقهـا نصوص أخرى بسـبب غـلاء الـرقّ وندرته. فيذكـر: (أقام الناس ببغداد سـنين لا يكتبون إلا في الطروس، لأنَّ الدواوين نهبت في أيـام مُحَمَّد بن زبيدة، وكانت في جلود فكانت تُمحى ويكتب فيها)[١٧]ويشير هنا إلى الاضطراب الذي حدث أيام الخليفة العباسي مُحَمَّد الأمين بن هارون الرشـيد (قتل: ١٩٨هـ/٨١٣م)، في نهايـة القـرن الثاني الهجري مـع أخيه المأمون سـنة (١٩٨هـ/٨١٣م)، عندمـا عـمَّ الخراب في بغـداد والهدم حتى دَرَسَـتْ محاسـنُ بغـدادَ بعد حصـار طويـل انتهـى بقتـل الأمـين[١٨]، ونهـب الدواوين (الأرشـيف الحكومي الرسمي) الذي كان مكتوبًـا على رُقوق، فلم يجد الناس مواد للكتابة إلا تلـك الرقوق المنهوبـة، فقاموا بمحو مـا عليها من نصـوص، وأعادوا اسـتخدامها للكتابة. هذا النص يُظهـر أنَّ نصوصًا رسـمية (ديوانيـة/ حكومية) اندثرتْ بسبب محوها واستعمالها في نسخ نصوص أخرى.

وهذا ما يفسر الاستطراد الطويل الذي ترجمته الباحثـة نبيهـة عبـود (ت١٤٠١/١٩٨١م) في كتابها (تَشـكيل طُرُس القرآن ومَخطُوطَاته الأُولى) (صدر سـنة ١٩٣٨م) كاشفةً بوضوح: (قـلّة ولع العَرَبـيّ بطبيعتِه بحفظ السـجلات والوثائق)[١٩]، وتـراهُ امتـدادًا لنمط عربـي أقـدم في التعامل مع النُّصوص والوثائق وفقًـا لما وصفه أَمِين الرَّيْحاني (ت١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) في كتابـه (ملوك العرب) (صـدر عـام ١٩٢٤م)، عـن كيفيـة التعامـل في الشـؤون اليومية باليمَـن في أوائل القرن العشرين، قـدَّم الريحاني وصفًا حيًا لسـير شـؤون الدولة في اليمن واقتصادها في الوَرَق عند زيارته لتلك الأمارة العَرَبيّـة واصفًـا ما قاموا به من تقطيع أرشـيفهم الموروث عن الدولة العثمانية من الكتبِ والقسـائم والعرائـض والوثائـق من كل نـوع، إلى قصاصات لاستخدامها في كل دائرة حكومية[٢٠].

يكـرر ابن النديم المشـهد تقريبًـا، لكن بصفتِه شـاهدًا كوديكولوجيًـا، يتحـدثُ من موقـع المهتم بالمَخطُوطَات والكتب فيقول: (رأيت عدَّة مصاحف ذكر نسّـاخُها أنَّها مصحفُ ابن مسعود، ليس فيها مصحفين متفقين وأكثرها في رقٍّ كثير النسـخ)[٢١].

---

(١٧) ابن النديم: الفهرست ١/٤٨.

(١٨) الطبري: التاريخ ٨/٤٤٨.

(١٩) عبود: تشكيل طرس ص٣٩.

(٢٠) الريحاني: ملوك العرب ص١٣٣-١٣٥.

(٢١) ورد في الفهرسـت لابن النديم، بحسب نشرة غوستاف فلوجـل ص٢٦، ورضا تجـدّد ص٢٩، ودار المعارف ص٤٠، نصٌّ بلفظ: (في رَقٍّ كثيرِ النَّسْـخِ)، بينما أورد أسـتاذنا الكبير الدكتور أيمن فؤاد السـيد في تحقيقه للكتـاب ١/٦٦ قـراءةً مختلفـة هـي: (في رَقٍّ كبـيرِ النَّسْـخِ). يحمل نص ابن النديـم بقراءته الأصلية (في رَقٍّ كثيرِ النَّسْـخِ) دلالة تقنيـة ومعرفية دقيقة مع ما نعرفه عن الممارسات الكتابية في القرون الأولى للهجرة. أما القراءة الثانية (كبير النسخ)، فهي توحي بوصفٍ جمـاليٍّ يتعلق بحجم الخط أو الرق، ولا تضيف معنى جوهريًّا في السـياق، بل تمثل تحويرًا غير منسجم مع المقصـود، ناتجًا عن تصحيفٍ نسـخيٍّ. ولا يُعرف في التراث العربي وصفٌ للمصاحف بأنها كبيرة النسـخ بمعنى: الخط الكبير، لذا فإن هذه القراءة تفقد النص قيمتـه الكوديكولوجيـة الأصلية، يذكر ابـن النديم في

والتركيـز هنا على (كثير النسـخ) يشـير إلى رصده المادّي للنصوص، ممـا جعلَه يلحظ آثار النُّصوص السـفلى. فضـلًا عن اسـتثماره لإظهـار اضطراب النقل النصي بين المصاحف الأولى.

وأشـار الجاحِظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م) أيضًا إلى عمليـة الطّرس عند حديثه عـن المفارقة بين الوَرَق والرق، والإمكانيـة المتوفرة في الـرقّ ومزاياه، وإن كان منحـازًا إلى الـوَرَق، فيذكـر أن الـرقّ: (أحمَلُ للحـكِّ والتغيـير، وأبقَى على تعـاور العارية، وعلى تقليبِ الأيدي، ولرَدِيدِها ثمن، ولطَرْسِـها مَرجوع، والمعاد منها ينوب الجُدُد ...)[٢٢]. هذا النص النفيس يكشـف كثيرًا مـن الجوانـب التقنيـة لمَخطُوطَات الطّـرس، فالمَخطُوطَـات المكتوبة على الـرقّ قابلة للتغير بالمحو أو الكشـط (النص السفلي) وإرجاعه إلى حـال جديـد بالكتابـة فوقه (النـص العلوي)، يشـير الجاحظ هنا إلى إعادة تدوير الرقوق (عملية الطّرس). فضلًا عن أنّ هذه الطّرس لها ثمن مادي يمكـن تقييمها في البيع والشراء مما يعكس سـوقًا رائجـة للورق المسـتعمل، فالنـصّ يعكس الجانب الاقتصادي بمسـألة رقـوق الطّـرس، إذ إن الوَرَق والجلود كانـت موادَّ باهظة الثمن، فـكان الطّرسُ وسـيلة عملية على وجود سـوق مخصصة للرقوق الطّرسية، وعلى مهارات خاصّة في التعامل معها.

وفي مشـهد حضـاري، يتحـدث أَبُـو الرَّيْحَـانِ البِيرُونِيّ (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، عن تاريخ المادة الكتابيـة، فيقـدّم سردًا متسلسـلًا لتطـوّر أدواتِ الكتابـة مـن الجلـد (الأدم) إلى الـوَرَق (الكواغد) وإن كان الجاحـظ قـد سـبقه إلى ذلـك عـلى نحو موجـز، ويـبرز وعـي الكتّـاب المسـلمين لعلاقـة التحوّل التقنـي بالتحوّل الثَّقَـافيّ، يقول البيروني: (... كانـوا في أوائـل الإسـلام يكتبـون عـلى الأدم، كعهد الخيبريّين من اليهـود. وككتاب النبيّ (ص) إلى كـسرى. وكما كتبت مصاحف القـرآن في جلود الظبـاء والتـوراة تكتب فيهـا أيضـا، فقوله تعالى [تَجْعَلُونَـهُ قَرَاطِيسَ] [الأنعـام:٩١]: أي طوامير. فِـانّ القرطـاس معمـول بمصر من لـبّ (البَرديّ) يُـبرَى في لحمـه، وعليه صـدرت كتـب الخلفاء إلى قريـب من زماننـا، إذ ليس ينقاد لحَـكّ شيء منه وتغييره بل يَفسد به. والكواغـُذ لأهل الصين، وإنّما أحدث صنعتَها بسـمرقند سَبيٌ منهم، ثمّ عُمل منه في بلاد شتّى فكان سـدادا من عوز)[٢٣]. فهو يوثق مـواد المخاطبات الرسـمية، ويصـف بدقّة صناعة البردي المـصري، ويفرّق بين (القرطاس) المصنوع من البردي و(الكواغد) المصنوعة من الألياف، وهي مـادة متينة لا تُمحى بسـهولة. فضلًا عن أنه يقدّم ثاني أقدم تلخيص عربي كلاسـيكي بعد الثعالبي (ت٤٢٩هـ/١٠٣٨م)[٢٤]لإنتقـال صناعـة الوَرَق مـن الصين إلى العالم الإسـلَاميّ بعد معركة تالاس Talas التي وقعت سـنة (١٣٤هـ/٧٥١م). وتأتي عبارة البيروني ضمن سياق وصفه لصناعة الوَرَق والـبردي بأنه لا (ينقـاد) للحَـكّ أو الإزالة، إي لا يمكن كشط سطحه لإزالة الكتابة منه دون أن يتلف أو يتمـزق. ويفهم أن ظاهـرة الطّرس كانت حكرًا على الرقّ الجلدي الذي يمكن (بشره) أو (كشـطه) لاستعماله مرة أخرى. ويقدم تفسيرًا ماديًا لتراجع ظاهرة الطّرس بعد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مع انتشـار الوَرَق في العالم الإسـلَاميّ، إذ أدى تحـول المادة إلى شيءٍ أكثـر نعومة وامتصاصًا

غيرها من المواضع (كتاب كبير) يشير فيها إلى الحجم.

(٢٢) الجاحظ: رسالة في الجد والهزل ١/٢٥٣.

(٢٣) البيروني: تحقيق ما للهند ص١٣٣.

(٢٤) الثعالبي: لطائف المعارف ص١٣٦.

للحـبر، قلّ على أساسـه محو النُّصـوص، إي قلت إمكانية محو الذاكرة النصية ذاتها.

يمثـل نصا ابن النديم والجاحظ شـواهد مهمة في الـتراث العَرَبـيّ على ظاهـرة عمليـة التطَرْيس وشـهادتين نادرتين ومبكرتـين في الثقافة العَرَبيّة، فضلًا عن نص البيروني يُبيّنُ جميعُها واقع المَخطُوط والنُساخ في ظل محدودية الموارد، وعلى الرغم من أن الباحثـين بذلوا جهودًا وإنجـازات متواصلة في علم تاريخ المَخطُوطَات العَرَبيّة، إلا إن الأطرُس المكتوبة بالخط العَرَبيّ المكتشفة والباقية في الوقت الحاضر نادرة الوجود وقليلة جدًا، ويعود ذلك لعوامل عدّة، فالطّـرس كان شـائعًا فقط في الفـترات أو الأماكن التي لم يكن فيها الوَرَق متوفرًا بكثرة (مثل العراق في بدايـة العصر العباسي)، فالرقّ كان مادة باهظة الثمـن مقارنة بالوَرَق الذي شـاع اسـتخدامه منذ القـرن الثاني والثَّالِـث للهجرة/ الثامن والتَّاسـع الميلادي، حيـث البقايا أكثر وفْـرَة لبقية الحوامل، ونتيجة التحول الرسمي والإداري والتقني في وسائل الكتابة يشير القلقشـندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م): (وأجمـع رأي الصحابة (رض) على كتابة القرآن في الـرقّ لطول بقائه، أو لأنه الموجـود عندهم حينئذ. وبقـي الناس عـلى ذلك إلى أن ولي الرشـيد الخلافة [ت١٩٣هـ/ ٨٠٩م] وقد كثر الوَرَق وفشـا عمله بـين الناس أمـر ألّا يكتب النـاس إلا في الكاغد، لأنَّ الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الوَرَق فإنه متى مُحيَ منه فسد، وإن كُشطَ ظهر كشـطه. وانتشرت الكتابة في الوَرَق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قَرُبَ وبَعُد، واسـتمرّ الناس على ذلك إلى الآن)[٢٥]. ظَلَّ اسْتِخْدامَ الرقّ مُنْتَشِرا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولكن كان هـذا نهاية العَصْر الذَّهَبي له فقد تراجع اسـتخدام الـرقّ تَدريجيًّا إلاَّ في المَغرب الإسـلَاميّ، حيث ظَلَّ نُسَّـاخُ المَخطُوطَـات أوْفِياء له، بالرَّغْـم من تراجع عَدَدها، حتى القرن الثَّامـن الهجري/ الرَّابع عشر الميلادي، وربما أيضًا حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[٢٦].

في القرون الهجرية الوسـطى، يقدم ابن العَدِيم (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) دليـلًا بصريًا وتاريخيًا على تـداول ظاهرة الطّـرس في البيئة العلميـة الحلبية. فهو لا يسـتخدم لفـظ الطّرس مجـازًا، بل بمعناه الكوديولوجي الصريح، إذ يشير إلى ما شاهدَه بنفسه في إحدى النسـخ المَخطُوطة التي نقلت له سماعًا في مقتل أَبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي (قُتل:٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، إذ قال: (وقرأتُ في جُذَاذَة طِرْس مَطْرُوح، في النّسْـخَة التـي وَقَعَـتْ إِليَّ بسَـمَاعِ جَدِّ جَدِّ أبـي القاضي أبي الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جَرَادَة، من شعر المتنبي على مُحَمَّد بن عبد الله بن سعد النحوي الحلبـي، وفيها مكتوب بغير خط النُّسْـخَة...)[٢٧]. ويُظهـر وصفُه الدقيق أن الجُذَاذَة، وهي قطعة من الـوَرَق أو الرقّ مقطوعة من أصل أكـبر، وغالبًا ما تكون من بقايا أوراقٍ مسـتعملة، كانت مَطّرُوحة، أي مهملـة أو في غير موضعها الأصلي. فيما يضيف قولـه: (وفيها مكتوب بغير خط النَّسْـخَة...)، بُعدًا ماديًا آخر لطبيعة النُّصوص.

عملية الطّرس في بعض الأحيان سـواء (الكشط أو الغسـل) كانت متقنة جـدًا وغالبًا عند النسـاخ المهـرة، لذلـك اختفـت آثـار كثـير مـن النُّصوص ولـم تُكتشـف إلا نـادرًا بتقنيات حديثة (الأشِـعَّة

(٢٥) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/٤٧٥-٤٧٦.

(٢٦) ديروش: المدخل ص٧٨.

(٢٧) ابن العديم: بغية الطلب ٢/١١٣.

فوق البَنَفْسِجِيَّة، أو التصوير الطيفي). وبعض الرقّ عولج بطريقة يتعذَّر معها إصْلاحُه بسبب المُسْتَحْضَرات المستخدمة، الأمْرُ الذي يجعل مُحاوَلاتُ القراءة اللاَّحِقَة مُسْتحيلَة. وما نجا من هذه العملية مثل صك وقفٍ على قطعة صغيرة من القرآن الكريم محفوظة في متحف المعهد الشرقي في شيكاغو (برقم A٦٩٦٧) من مجموعة المستشرق الألماني برنهارد مورتس Bernhard Moritz (ت١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) عبارة عن رق ممسوح من رق خشن نجا من الاستخدام المزدوج وويلات الزمان[٢٨]. وأشارت الباحثة التونسية أسماء الهلالي في دراستها لأطرَاس سيناء، وصنعاء، إلى أن بعض الطّرس احتوى على خمس طبقات مكتوبة بالسريانية واليونانية والعَرَبيّة[٢٩]. هذه الممارسات أدت إلى تلف كثير من تلك الرَّقُّوق.

المؤرِّخ والفيلسوف المغربي، ابن خَلْدُون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م)، قال في مقدمته: (وكانت السِجِلاتُ أوَّلا لانتساخِ العلومِ، وكتُب الرسائلِ السلطانيَّةِ والإقطاعاتِ، والصُكوك في الرُقوقِ المهيَّأةِ بالصِناعةِ من الجِلدِ، لكثرَةِ الرَّفهِ وقِلَّةِ التآليف صَدْرَ المِلَّةِ كما نذكُرُهُ، وقِلَّةِ الرسائلِ السلطانيَّةِ والصُكوكِ مع ذلكَ، فاقتصروا على الكتابِ في الرقّ تشريفًا للمكتوباتِ وميلًا بها إلى الصّحَّة والإتقانِ. ثم طما بحرُ التأليف والتدوينِ، وكثرَ ترسيلُ السُّلطانِ وصُكوكُه وضاقَ الرقّ عن ذلك، فأشارَ الفضلُ بنُ يحيى بصنَاعةِ الكاغِدِ، وصَنَعَهُ وكتبَ فيهِ رسائلَ السلطانِ وصكوكَهُ. واتخذَهُ الناسُ من بعدِهِ صُحُفًا لمكتوباتِهم السُّلطانيَّةِ والعِلميَّةِ. وبلغت الإجادَةُ في صِناعتِه ما شاءَت)[٣٠]. أهمَل ابن خَلْدُون ذكرَ سبب تقني مهمٍ من شأنه شرح استعانة كتَّاب الدَّواوين بالوَرَق على حساب الرقّ أو أوراق البردي، وهو أن الوَرَق كان يمتصُّ المِدَاد، فيصعُب محو الكتابة أو طَرسُها من سطحِه دون أن يترك ذلك المحوُ أثرًا، ولذلك كانت الوثائق المدوَّنة على الوَرَق أقلَّ عرُضة للتَّزوير من تلك التي دُوِّنت على أوراقِ البردي والرقّ بما لا يُقاس؛ حيثُ كان يَسهُل محو أو طرس الكتابةِ من أسطح هاتين المادتين، أما بكشط البردي، أو بغسل الرَّق. ولم يذكر ابن خَلْدُون الطّرس، لكنه أشار إلى سبب تقني اقتصادي أدّى إلى اختفاء الطروس بـ (ظهور الوَرَق الذي لا يمُحى).

غالبا ما ارتبطت عملية الطّرس بالرَّق، ولكن بعض الوثائق توضّح أنه حتى الوَرَق بعد انتشاره في العالم الإسلَاميّ؛ لم يُستثنَ من ثقافة إعادة الاستخدام والتدوير، وليس هذا مدعاةً للاستغرابِ قطّ، فنظرًا إلى أن الوَرَق كان يُعدُّ مادةً مستوردة آنذاك، فقد كان ثمنه باهظًا، وحتى بعد أن شُرعَ في تصنيع الوَرَق محليًا، فما زلنا نرى حرص النُساخ على إعادة استخدامه وإعادة تدويره، رغم كونه أصعبَ في الطمس من الرَّق. فعلى سبيل المثال اكتشفت وثيقة من أوراق الجنيزة (خزانة أوراق يهودية في القاهرة) كُتِبَ عليها للمرة الأولى في (١٩ ذي الحجة ٣٧٦هـ/ ٢٦ أبريل (نيسان) ٩٨٧م)، في ذروة الازدهار الفاطمي في مصر، ثم بعد قرن ونيفٍ، وتحديدًا في (٢٥ شعبان ٤٧٨هـ/ ٢١ ديسمبر (كانون الأوَّل) ١٠٨٥م) أعيدَت الكتابة عليها مجددًا[٣١]. وكذلك في مكتبة

(٢٨) عبود: تشكيل طروس ص١٢٤.

(29) The Sanaa Palimpsest p5:Hilali.

(٣٠) ابن خلدون: التاريخ ٢/٧٥٥.

(٣١) بلوم: قصة الورق ص١٦٩.

رسالة محفوظة في مكتبة جامعة برينستون (مشروع الجنيزة) برقم (Letter: T-S Ar.39.480)
ربما يعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي

جامعة برينستون Princeton University Library (مشروع الجنيزة) رسالة على الوَرَق برقم (Letter: T-S Ar.٣٩,٤٨٠) من شخص يدعى (طاهر) من مدينة قوص (في محافظة قنا في مصر)، إلى والدته في مدينة الإسكندرية. مكتوبة بخط عربي، وحروف كبيرة منتظمة جدًا. ربما يعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. استأجر المرسل حيوانات للسفر إلى عيذاب (ميناء على ساحل البحر الأحمر في مثلث حلايب جنوب مصر) مقابل ٨ دنانير، يأملُ في الإبحار في نهاية شهر رجب، وخَصَّص المُرسل جزءا كبيرا من الرسالة لتحية الجميع في الوطن وطلب الدعاء. ويروي أن رجلًا يُعرف باسم [...] الفارسي (أو القرشي؟) أخبرَه أن أبناء عمومته (أولاد عمي) بخير، ويَعيشون في مكان يُسمى تبليه في اليمن. (يشير شلومو دوف جويتين Shelomo Dov Goitein (ت١٤٤٧هـ/ ١٩٨٥م) في البطاقة إلى أن هذه القطعة مَخطُوطة على ورق، لكن النصَّ السفلي قد يكونُ مجرد طبعة معكوسة)[٣٢].

أشار ابن عبدون في رسالة الحِسْبَة إلى أنه: (يجب أن لا يُعْمَل رَقّ إلاّ مَبْشُورًا..)[٣٣]. على هذا التعبير علّق دوزي (ت١٣٠٠هـ/١٨٨٣م) موضحًا معنى الرقّ المبشور، بمقارنته مع الطّرس المكشوط: (قشر وجهه، وبشر الكتابة، حكّها لإزالتها من الوَرَقة، ومحا الكلمات بممحاة...)[٣٤]. ومع ذلك، يبقى من غير المؤكد أن ابن عبدون قصد هنا عملية الطّرس تحديدًا، إذ قد يكون المقصود بالعبارة الرقّ الجديد المهيأ للكتابة أو التسفير (ما يُسمى في المَشرق تجليد الكتب)، وهذا ما يوضحه ابن أبي حميدة (عاش في القرن التاسع الهجري/

(٣٢) مكتبة جامعة كامبريدج، تايلور- شيشتر، TS Ar.٣٩,٤٨٠. متاحة عبر الإنترنت من خلال مشروع برينستون جينيزا على الرابط: https://geniza.princeton.edu/documents/٩٢١٨/ (تاريخ الوصول: ٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٢٥).

(٣٣) عبدون: الحسبة ص٥٩.

(٣٤) دوزي: تكملة المعاجم، مادة: بَشَر. يُنظر كذلك: بنين وطوبي: معجم مصطلحات المخطوط العربي ص٤١.

الخامس عشر للميلاد): في التدبير بقوله: (والجلدُ إنْ كان غليظًا يُبشرُ، والبَشرُ فيه واجبٌ مشتهرُ)[٣٥]. فسّر الإشْبِيلي (ت٦٢٨هـ/١٢٣١م) في التيسير، البَشْر على أنه خطوة تقنية في تجهيز الرقّ الجديد، لاسيَّما إذا كان الجلد غليظًا، فيُبشر لتنعيمه[٣٦]. وكذلك يُشير ابن سِيدَه (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م) إلى أن من عادة تجهيز الرقّ أن يُؤخذ باطنُه بشَفْرةِ للتنعيم[٣٧]. هذا التعدّد الدلالي هو ما أدّى إلى تباين التفسير بين دوزي من جهة والمَصَادر التراثية من جهة أخرى.

بينما يشير كوركيس عواد (ت١٤١٣هـ/١٩٩٢م) إلى نسخةٍ من القرآن الكريم مكتوبةٍ بالخطّ الكوفي على رقٍّ مبشور في متحف قصر طوب قابي في اسطنبول، (برقم ٣٦E.H.٢٩)، قوامها (١٨×١٢،٥) في (١٤٧) ورقة. جاء في حردها (كتبه علي ابن أبي طالب). وهنا يُحدد الأستاذ عواد معنى ظاهرة الرقّ المبشور) بالرجوع إلى الكلمة الإنكليزية (palimpsest، وعرَّفها بأنَّها (رقّ اسُتعمل من قبل، ثم أُزيلت الكتابة عنه وكُتب عليه مرة ثانية)[٣٨]. أي أنها طِرْس بالمعنى العملي.

ورقة من القرآن الكريم تُنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، تظهر عليها كتابات سابقة. متحف قصر طوب قابي في إسطنبول، ورقة (٤A)[٣٩].

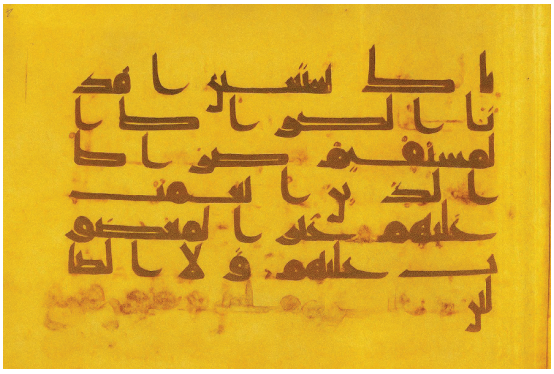

الوَرَقة الأخيرة من القرآن الكريم تُنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وجاء في آخرها (كتبه علي بن ابي طالب)، وتظهر عليها كتابات سابقة. متحف قصر طوب قابي في إسطنبول، ورقة (١٤٦A)[٤٠].

(٣٥) ابن ابي حميدة: تدبير السفير ص١٠٧.
(٣٦) الإشْبِيلي: التيسير ص٢٣.
(٣٧) ابن سِيدَه: المخصص م١/ج٤/١٠٩. كذلك: جاسك: تقاليد المخطوط العربي ص٤١.
(٣٨) عواد: اقدم المخطوطات العربية ص٣٢. وكذلك: المُنَجِّد: دراسة في تاريخ الخط العربي ص٦٤.

(٣٩) المُنَجِّد: دراسات في تاريخ الخط العربي ص٦٧.
(٤٠) المُنَجِّد: دراسات في تاريخ الخط العربي ص٦٨.

الطّرس في المُخَيَّالِ الشَّعْبيَّ:

لـم يكـن عمـل الطّـرس في المَخطُوطَـات عملا كوديولوجيا فحسـب فهو يكاد يكونُ عملًا متخيلًا تمتـزج فيـه السرديـة الرمزيـة والفلسـفية، التي أضفَت بعداً جماليًا وفنيًا يُوازي بين الجانبِ المادّي للطـرسِ والبعد الرمزي لمحو النصّ والذاكرة. ففي سـيرة ابن سـينا (ت٤٢٧هـ/ ١٠٣٧م) وشـقيقه أبي الحارث تلك الشخصية المتخيلة، وصفٌ ممتع، لخزانة كتبٍ اكتنزت فيها كـُتب الحكيم فيثاغورس Pythagoras (المتـوفى حـوالي: ٥٧٠ ق.م) جمـع مؤلفاته حين مرض، ولّما أحسّ بدنوّ الأجل، وضعَها داخل مغارةٍ ببلاد الغرب وطلمسها بفراسة حكمته ووكل بها أرصادًا مـن طوائفِ الجن، على أن تُفتح هـذه المغـارة مـرة في كل عـام مدة ثلاث سـاعات ليطّلعَ مَـن أراد على تلك المؤلفـات. وكان إذا حفظ أحدُ الناس شـيئًا مـن تلك العلوم، فـإذا خرج من المغارة أمّحى ما في ذاكرته فلا يتذكر شـيئًا. مكتبة تنكشف بهذه الطريقة، ساعة معرفة، وفسحة سنة من النسـيان، هكذا تنغلق المكتبة على سرّها الأزلي، إذ ليس من اليسـير حساب كم يلزمك من ساعة أو سـنة لإتمام قراءة كتاب واحد من كتب المكتبة، بله الإلمام بسرّها!! سرّ المكتبة الذي افتضّه الشـقيقان، إذ صنعـا رقائـقَ بصل مغذّيـة واختبـآ في المكتبة حين خـروج كلّ من دخلها، ونَعِمـا بفكّ أسرار كلّ الطلاسـم والتعازيم السـحرية. امتلـكا سرّ المكتبة فامتلكا العالم.

وهنـا يتفتقُ ذهـنُ ابن سـينا عن حيلـة تقنية لتظهر كيف تحوّل مفهوم الطّرس إلى رمز فلسفي ومعـرفي في المتخيلة الإسـلَاميّة، وهـي أن يكتبَ كل علـوم فيثاغورس عـلى الوَرَق بمـاء البصل، فكأنه أعظـم الجواسـيس في زمانـه، ذلك أن مـاء البصل (الحبر السـري) لن يظهـرَ لأيّ أحد، وذلـك إذا ما كُشِـفا وافتُضِح أمرهما، إلا بعد معالجته بالدخان فيتبخـر مـاء البصل وتظهـر الكتابـة[٤١][٤٠]. هذا النصّ التخيلي من سـيرة أبي علي بن سينا وشقيقه أبي الحارث نصٌّ رمزي تخيلي، يعيد بناء شخصية ابن سـينا بوصفه نموذجًا للعقل الكاشـف لأسرار الوجـود والعلوم القديمة. وصف المغارة أو الخزانة التـي تُفتح مـرة واحدة في السـنة، هنـا لا يتحدث عـن مكتبـة ماديـة أو أوراق مَطروسـة فحسـب، أو حبر مُطلسَـم، بـل يرمز إلى المعرفـة المحجوبة، وهي اسـتعارة عـن الطّرس المعـرفي. الرقائق التي صنعهـا الشـقيقان ليختبئا داخل المغارة تجسـيد لرحلة الباحث في اقتناص لحظة الكشـف، فالمعرفة هنا ثمنهـا العزلة والزمن. النـص يربط بين السرّ، والنص، والزمان: فالمكتبة التي تُفتح سـاعة واحدة ثم تُغلق عامًا كاملًا تشبه نصـًّا مَطْروسًا لا يرُى إلا لمن يمتلك مفاتيح قراءته.

إنّ فكـرة الطّـرس في التراث العَرَبـيّ لا تقتصر عـلى كونهـا تقنيـة مادية لإعـادة اسـتخدام الرقّ أو الـوَرَق، بل تمتـدّ لتصوغ رؤية ثقافية شـاملة لمفهوم المحو وإعادة الكتابة، بوصفها فعلًا معرفيًا وروحيًـا. ففـي حين تجلّت هـذه الفكـرة ماديًا في الرقـوق المحـوة والمكتوبـة مـن جديـد، نجد لها امتدادًا روحيًـا أنثروبولوجيًا عند ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) إذ يقـول: (فَـإِذَا عَسُرَ عَلَى الْمَـرْأَةِ وَلَدُهَا، فَاكْتُبْهُ لَهَا.. وَكُلُّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الرُّقَى، فَـإِنَّ كِتَابَتَهُ نَافِعَةٌ. وَرَخَّصَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّـلَفِ فِي كِتَابَةِ بَعْضِ الْقُرْآنِ وَشُرْبِهِ، وَجَعْلِ ذَلِكَ مِنَ الشِّـفَاءِ الَّـذِي جَعَلَ اللَّهُ فِيـهِ)[٤٢]. هذا النصّ يكشـف عن

(٤١) سيرة أبي علي بن سينا ص٣٨-٤٢ وما بعدها.
(٤٢) ابن القيم الجوزي: زاد المعاد ٤/٣٢٨.

تصوّرٍ عميقٍ للكتابة بوصفها كائنًا حيويًا متحوّلًا، لا يقتصر أثره على البصر والقراءة، بل يمتدُّ إلى الجسد ذاته. فالكتابة تُذوَّب في الماء، ثم تُشرب، فتتحول من أثرٍ على الصفحة إلى أثرٍ في الجسد، من نقشٍ على الرقّ إلى نقشٍ في اللحم والدم. إنها كتابةٌ تمحى لتُعاد كتابتها في مادة أخرى – تمامًا كما يُمحى نصّ قديم على الرقّ ليُستبدل به آخر.

بهذا المعنى، فإن (شرب الكتابة) الذي رخّص فيه ابن القيم وجماعة من السلف يمثّل ضربًا من الطّرس الجسدي، ويغدو الجسد نفسُه رقًّا روحيًا يتلقى النصّ الإلهي. وكما في الطّرس المادي، حيث لا يُمحى الأثر تمامًا بل يظلّ باهتًا تحت النص الجديد. من هنا يمكن القول إنّ الطّرس، في بعده الأعمق، هو فعل الذاكرة والتحوّل؛ فهو يتيح للنصوص أن تتوالد وتتجدّدَ في موادَّ مختلفة – من الرقّ إلى الوَرَق، ومن الماء إلى الجسد. ويُظهر نص ابن القيم كيف انتقلت فكرة الطّرس من الممارسة المادية إلى الرمزية الصوفية واللاهوتية، حيث تصبح عملية المحو وإعادة الكتابة فعلًا من أفعال التقديس والتطهير، لا مجرد اقتصاد في المادة أو ممارسة تقنية.

تِقْنِيَّاتُ مَحْوِ الكِتَابَةِ في الطّرس:

تنوّعت المواد التي استخدمها النُّسَّاخ في محو النُّصوص القديمة لإعادة الكتابة فوقها بحسب العصور والبيئات الجغرافيّة. فقد استُعمل الرقّ (الجلد المدبوغ) في الغالب، لقدرته على التحمّل وإمكانية محو الكتابة عنه بوسائل فيزيائيّة أو كيميائية دون تلف تام. وشملتْ طرق الطمس: الكشط بالسكين الدقيقة أو المسح بالصوف المبلل بالماء أو أحد المحاليل وغيرها، وهي مواد تساعد على إزالة الحبر أو تليينه.

وتُظهر الدراسات الكوديكولوجية الحديثة، لاسيَّما في طرس صنعاء وطرس دير القديسة كاترين، أن تقنيات الطمس وإعادة الكتابة كانت تتراوحُ بين الحرفية العالية والحلول الاضطرارية الناتجة عن ندرة مواد الكتابة.

ومن أقدم الإشارات الموثقة على تقنية المحو المائي للنصوص المكتوبة على الرقاع الجلدية (الأدم)، وهي تمثّل نوعًا من المحو النهائي الشائع للنص الأصلي في القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد، حتى لا يبقى أثر للنص السابق يمكن أن يُقرأ أو يُعتمد، وهي عملية كيميائية دقيقة – في حينها – تعتمد على سطح الجلد دون إحراقه أو تمزيقه، وهو ما يُعدّ من منظور كوديكولوجي تقنية متقنة في التعامل مع مادة الكتابة. ففي رواية عن زَيْد بن ثابت (ت٤٥هـ/ ٦٦٥م) قال: (لَمَّا أَمَرَنِي أَبُو بَكْرٍ [ت١٣هـ/ ٦٣٤م] فَجَمَعْتُ الْقُرْآنَ، كَتَبْتُهُ فِي قِطَعِ الْأُدُمِ، وَكِسَرِ الْأَكْتَافِ، وَالْعُسُبِ. فَلَمَّا هَلَكَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كَانَ عُمَرُ [قتل:٢٣هـ/ ٦٤٤م] كَتَبَ ذَلِكَ فِي صَحِيفَةٍ وَاحِدَةٍ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ. فَلَمَّا هَلَكَ عُمَرُ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - كَانَتِ الصَّحِيفَةُ عِنْدَ حَفْصَةَ [المتوفاة:٤٥هـ/ ٦٦٥م] زَوْجَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ أَرْسَلَ عُثْمَانُ [قُتل:٣٥هـ/ ٦٥٦م] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إِلَى حَفْصَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فَسَأَلَهَا أَنْ تُعْطِيَهُ الصَّحِيفَةَ، وَحَلَفَ لَيَرُدَّنَّها إِلَيْهَا. فَأَعْطَتْهُ، فَعَرَضَ الْمُصْحَفَ عَلَيْهَا، فَرَدَّهَا إِلَيْهَا. وَطَابَتْ نَفْسُهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ فَكَتَبُوا الْمَصَاحِفَ. فَلَمَّا مَاتَتْ حَفْصَةُ أَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ [ت٧٣هـ/ ٦٩٢م] بِالصَّحِيفَةِ بِعَزْمَةٍ

فَأَعْطَاهُمْ إِيَّاهَا فَغُسِلَتْ غَسْلًا)[٤٣].

تقنية الطّرس بالغسل في هذه الرواية تعكس الاحتراز الديني من بقاء نصوص مختلفة قد تُحدث لبسًا أو خلافًا، فلم يكن الهدف إعادة التدوير، بل حماية النص القرآني وتثبيت سلطته العليا. النص يشير إلى أن المادة المستخدمة كانت من الأدم أو الرقّ الرقيق، الذي يسمح بإزالة الحبر عبر فركه برفق بعد تبليله بالماء – لتتطور التقنية في العصور اللاحقة إلى محاليل خفيفة – وهي طريقة مذكورة لاحقًا في أدبيات إزالة الآثار عن الرق. وعليه يمكن أن نعدّ هذا النص الطور الأول من تقنية المحو العَرَبيّة – الإسلَاميّة، الذي تطور لاحقًا إلى (الطّرس الوظيفي)، حين بدأت الرقوق تُعاد كتابتها.

تؤكد روايات الْخَطِيب البَغْدَادي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٢م) في كتابه النفيس (تقييد العلم) عن تقنية العلماء في العصور الإسلَاميّة المبكرة لعملية المحو بالغسل، إذ يورد خبر عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (ت٣٢هـ/٦٥٣م) حين وجد قومًا يقرأون صحيفة، فلما بلغ الأمر إلى ابن مسعود (... فَدَعَا بِمَاءٍ فَغَسَلَ تِلْكَ الصَّحِيفَةَ)[٤٤]. ويورد الخطيب رواية أخرى تفصل العملية بدقة أكبر: (... ثُمَّ دَعَا بِطَسْتٍ فِيهِ مَاءٌ, فَمَاثَهُ فِيهِ ثُمَّ مَحَاهُ)[٤٥]. أي خلط الماء بالحبر حتى تلاشى أثره، ثم أزال بقاياه عن سطح الرق.

ويشير النص إلى أن عملية الغسل لم تكن عشوائية، بل اتبعت أسلوبًا تقنيًا مزدوجًا يجمع بين الأثر الكيميائي (تحليل مكونات الحبر بالماء حتى تنفصل جزئياته اللونية عن السطح). والأثر الميكانيكي (المحو اليدوي بواسطة الفرك أو الدلك). ويذكر الخطيب أن عملية الطّرس كانت تستخدم الصوف الأبيض والماء الساخن لإتمام المحو، في ما يعد وصفًا مبكرًا لواحدة من أقدم صور الطّرس العَرَبيّ باستخدام الغسل بالماء[٤٦].

ومن تقنيات عملية الطّرس الكشط (أو الحكّ)، وهي أكثر الطرق شيوعًا في العصور الوسطى لإزالة النُّصوص من الرقوق، لاسيَّما بعد انتشار استخدام الرقّ الجلدي والبُرشمان[٤٧] الذي يسمح بإعادة

(٤٣) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢/٥١. وفي رواية أخرى تعكس تشديدًا أكبر في محو الأثر وردت في كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني ص٥٧: (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ كَانَ جَمَعَ الْقُرْآنَ فِي قَرَاطِيسَ، وَكَانَ قَدْ سَأَلَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ النَّظَرَ فِي ذَلِكَ، فَأَبَى حَتَّى اسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِعُمَرَ فَفَعَلَ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْكُتُبُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تُوُفِّيَ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تُوُفِّيَ، ثُمَّ كَانَتْ عِنْدَ حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا عُثْمَانُ فَأَبَتْ أَنْ تَدْفَعَهَا إِلَيْهِ حَتَّى عَاهَدَهَا لَيَرُدَّنَّهَا إِلَيْهَا، فَبَعَثَتْ بِهَا إِلَيْهِ فَنَسَخَهَا عُثْمَانُ [فِي] هَذِهِ الْمَصَاحِفِ ثُمَّ رَدَّهَا إِلَيْهَا فَلَمْ تَزَلْ عِنْدَهَا حَتَّى أَرْسَلَ مَرْوَانُ [المتوفى:٦٥هـ/٦٨٥م] فَأَخَذَهَا فَحَرَّقَهَا).

(٤٤) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص٥٥.

(٤٥) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص٥٣. وفي رواية أخرى ص ٥٤: (... يَا جَارِيَةُ هَاتِي الطَّسْتَ, اسْكُبِي فِيهَا مَاءً, فَجَعَلَ يَمْحُوهَا بِيَدِهِ ... فَجَعَلَ يَمْحُوهَا).

(٤٦) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ص٥١. قوله: (قَالَ: انْطَلِقْ فَامْحُهُ بِالْحَمِيمِ، وَالصُّوفِ الْأَبْيَضِ)، و ص٥٤ (فَجَاءَتْ بِهَا فَجَعَلَ يُدَلِّكُهَا).

(٤٧) بُرْشُمان: ورق نفيس شبيه بالرقوق الجلدية، وعند ابن منظور في لسان العرب مادة (برشم) هي: تَلْوِينُ النُّقَطِ. ويذكر ول. ديورانت في قصة الحضارة ٢٦/٢٢٧: أن المقطوعة الموسيقية التي ألفها أورلاند دي لاسوس Orlande de Lassus (المتوفى:١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م) – أحد أكثر المؤلفين استكشافا للموسيقى الدينية في منتصف القرن للسادس عشر للميلاد – لألبرشت الخامس (Al-bert V) (المتوفى:٩٨٦هـ/ ١٥٧٩م)، كانت بعنوان (مزامير التوبة السبعة)، وأعجب دوق بافاريا بهذه الموسيقى حتى أنه كلف الفنانين بتسجيلها على الورق (البرشمان) وزخرفتها بالمنمنمات، وتجليدها

الاستخدام بعد إزالة الحبر.

كانت عملية الكَشْط (يرادفها البَشْر) ميكانيكية في جوهرهـا، تعتمدُ على أدوات حـادة ودقيقة مثل سـكين القلم أو المِكشـطة المصنوعة من الحديد أو النحاس[٤٨]، وكان الناسـخ أو المرمم يُمرِّرها برفق على سـطح الـرقّ لإزالة طبقـة الحبر أو جـزءٍ من الطبقـة العليا من الجلـد التي تشرَّبت بـه. أحيانًا تُسـتكمل العملية بتنعيم الموضـع المصقول بحجر الخُفـاف أو قطعـة مـن العظـم، ثم يُعـاد تهيئته للكتابة من جديد.

إنّ عمليـة الكشـط كانـت إجـراء محفوفًـا بالمخاطر، فالرقّ مادة عضوية حيّة التركيب مكونة مـن ألياف الكولاجين الحساسـة للضغط والحرارة والرطوبة، لذلك فإن المحو الكلي للنص عبر الكشط قد يؤدي إلى تلف السـطح الكتابـي أو تلف ألياف الجلـد بحيـث يصبح غـير صالح للكتابـة مجددًا، لهذا السـبب تشير الشـواهد المادية والنصّية إلى أنّ الكشـط كان غالبًـا جزئيًـا وليس كليًـا، يذكر ابْن النجار (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) أنه رأى جزءًا بخط ابْن الْخَيْر الْحَنْبَلِيّ (ت٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) فيه طرق قراءات منسـوبة إلى يحيى الْأَوَانِي الضَّرِير وأَنه قَرَأَ بهَـا على مجموعة من القراء، إِلَّا أَن اسْـم الْأَوَانِي فِي جَمِيعهَـا مَكْتُـوب عـلى مواضعَ كُشـط منها الخط الأصـلي. فأنكـر ابن النجّـار على ابـن الخير صحّة هذه النسـخة وبطلانها. فاعترفَ الأخير بخطئه، ثم مـزّق الأوراق وأبطلها[٤٩]. وكذلك يشـير ابن حَجَر العَسْقَلَاني (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) في ترجمته لعبد الله بـن مُحَمَّد النشـاوري (ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، أنـه وقف على اسـتدعاء بخط الحافـظ بهاء الدين ابن خليل مُؤرَّخٍ بسـنة (٧١٠هـ/ ١٣١٠م)، وفيه إجازات لعدد من الشـيوخ، منهم والد شيخه مُحَمَّد بـن مُحَمَّـد المكي وولـده عبد الله. لكـن ابن حجر بعـد التدقيق لاحظ أن - الواو والهـاء - مكتوبتان فوق كشـط ظاهر، وأن النص الأصـلي كان (المكي مولـدًا) وليـس (المكي وولـده !!) فشـكّ في صحة الإسـناد وتوقف عن الرواية به[٥٠]. وكذلك قد لاحظ الباحثون في طروس دير القديسة كاترين وصنعاء أنّ كثـيرًا مـن الرقوق أظهرت بقايا نصٍّ سـابق في الهامـش أو أسـفل الطبقـة الكتابيـة الجديدة، ما يـدلُّ على أنّ الكشـط كان جزئيًـا ومتحفظًا وليس شاملًا. وهكذا، فإن الطّرس بالكشط يمثل الجانب الفيزيائـي اليـدوي من تقنيـات المحـو، في مقابل الطّرس بالغسل الذي يعتمد على التفاعل الكيميائي، وكلاهما يعكسان وعيًا ماديًا وتقنيًا عميقًا بالكتابة كعملية قابلة للتحوير وإعادة التدوير.

ويُعَدُّ ما أورده أبو بكر مُحَمَّد بن زكريا الرازي (ت٣١٣هـ/ ٩٢٥م) في كتـاب (زينـة الكتبـة)، من أقـدم وأوضح الشـواهد التقنيـة العَرَبيّة التي تناولـت عمليّات الطّرس الكيميائي في إزالة الأحبار من القراطيسِ والرقوق والكاغـد. بمختلف أدواته ومواده. فقد سـجّل الرازي بدقّة وصفاتٍ كيميائية متعـدّدة لقلـع المِدَاد ومحـو الكتابـة بحيث يمكن إعادة الكتابة على السـطح مـن جديد دون أن يُرى أثرُ النص القديم[٥١].

فمنهـا مـا يعتمد عـلى المحو بالمـواد العضوية

بجلـد الماعز الأحمـر الفاخر في مجلديـن من القطع الكبـير، محفوظين الآن ضمن أثمـن مقتنيات مكتبة الدولة في مدينة ميونيخ.

(٤٨) جاسك: تقاليد المخطوط العربي ص٢٦٩.

(٤٩) الصفدي: الوافي بالوفيات ٦/١٤٣.

(٥٠) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ٢/٤٠٧.

(٥١) الرازي: زينة الكتبه ص٢٢٤.

والراتنجية[٥٢] مثل: الشمع، والكندر[٥٣]، واللبان الممضوغ، والأشقّ[٥٤] المسحوق، حيث تُقطر عليها قطرات ماء وتُلتقط بها آثار المِدَاد من سطح الوَرَق.

ومنها ما يعتمد على تركيبات معدنية وكيميائية مثل: الأسفيداج[٥٥] الرصاصي الممزوج بالصمغ العَرَبيّ لتبييض الموضع المراد محوه، أو الشبّ[٥٦]، والمِصل[٥٧]، والقِلي[٥٨]، والكبريت الأبيض[٥٩] المنقوع في خلّ، وهي مواد قادرة على تحليل مكوّنات الحبر العضوي والمعدني. كما أشار إلى محاليل أخرى من ماء حامض الأترجّ لتقشير آثار الحبر المتبقية من الرقوق والدفاتر.

هذه الوصفات تمثل في مجموعها وعيًا تقنيًا مبكرًا بالطبيعة الكيميائية للأحبار والمواد الناسخة، إذ تتضمن معرفة دقيقة بالتفاعل بين الحموض والقلويات والمواد الراتنجية على أليـاف الوَرَق أو جلود الرقّ. ومن ثمّ فهي تؤكد أن الطّرس عند العرب لم يكن مجرد عملية ميكانيكية (كالكشط)، بل كان في كثير من الأحيان عملية كيميائية متكاملة تهدف إلى إذابةِ المِدَاد دون إتلاف السطح الكتابي.

وتُعدّ هذه النُّصوص العلمية من (زينة الكتبة) وثيقة فريدة توضح أن الورّاق العَرَبيّ مارس الطّرس على أنه فعلٌ تقني منظّم، مستعينًا بخبرة كيميائية دقيقة تمكّنه من إعادة استخدام الرقوق، سواء لأسباب اقتصادية أو تصحيحية أو علمية.

ويواصل المعز بن باديس الصنهاجي (ت٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) في كتابه (عمدة الكتّاب وعدّة ذوي الألباب) ما بدأه الرازي ومَن سبقَه في هذا الفن من تأصيل تقنيات إزالة المِدَاد عن الحَوامل، مقدّمًا وصفات دقيقة ومتنوّعة لعمليات المحو الكيميائي المنظّم، تُظهر تطور الخبرة العَرَبيّة ونضجها في معالجة المواد الكتابية وهو يجعل المواد كالممحاة في وقتنا الحاضر[٦٠]. ففي كتابه، يورد المؤلف مجموعة من التركيبات التي تُستخدم لمحو الكتابة من الدفاتر والرقوق والمصاحف، اعتمادًا على مواد مثل: الشب اليماني، والمقل، والكبريت الأبيض، والخلّ، إذ تُسحق وتمزج لتكوين عجينة تُستخدم حكًّا لإزالة المِدَاد من الأسطح. كما يشير إلى وصفات أخرى تشمل ماء الغاسول، والعنصل[٦١]، والصابون المصعد، وهي مواد ذات خصائص قلوية قوية قادرة على تحليل الحبر وتفكيك جزئياته من سطح الرقّ دون تمزيقه.

ويُلاحظ أنّ بعض وصفاته تعتمد على عمليات التقطير المتكرر للأملاح والمعادن للحصول على

---

(٥٢) راتينَج: Resin، مادَّةٌ عُضْوِيَّةٌ صَمْغِيَّة. البعلبكي: المورد، مادة (راتينَج).

(٥٣) كُنْدُر: Frankincense, Olibanum، لُبَان، بَخُور. البعلبكي: المورد، مادة (كُنْدُر).

(٥٤) أشَّق: وشَّق: Comme ammoniaque، من أصل فارسي، صمغ طبي يستخرج من أنواع نباتية من جنس Ferula. خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية، مادة (أشَّق).

(٥٥) اسفيداج: Whitc I.ead، هو الكربونات القاعدية للرصاص، وهو مسحوق يستخدم في أعمال الطلاء، وهو سام. خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية، مادة (اسفيداج).

(٥٦) شَبَ: Aium حَجَرُ الشَّبَ. البعلبكي: المورد، مادة (شَبَ).

(٥٧) مَصْل: Whey, Serum، مَصْلُ اللبَّن (يُفْصَلُ عِنْدَ صُنْعِ الجُبْن). البعلبكي: المورد، مادة (مَصْل).

(٥٨) قِلْي: Alkali, Base، كيمياء. البعلبكي: المورد، مادة (قِلْي). كاربونات البوتاسيوم. هو الرماد الناتج من حرق نبات الأشنان.

(٥٩) الكبريت الأبيض: White Sulfur، نوع من الكبريت العنصري الذي يظهر بلون أبيض أو أصفر باهت.

(٦٠) بن باديس: عمدة الكُتاب ص٨١ - ٨٣.

(٦١) عُنصُلُ: Squill, Sea Onion، بَصَلٌ بَرّيَ (نبات). البعلبكي: المورد، مادة (عُنصُلُ).

سـوائل نقية شديدة الفاعلية في محو أثر الحبر، مع الحرص على حمايتها من الهواء للحفاظ على قوتها، وهـو وصف يدلُّ على معرفة كيميائية دقيقة ووعيٍ بخصائـصِ المـواد وتفاعلِهـا مع الحِـبر العضويّ والمعدني.

إنّ هذه النُّصوص، بالمقارنة مع ما وردَ في كتاب زينةِ الكَتَبَة للرازي، تكشـف عن تحوّل واضح من التجريب البسيط إلى تقنين شـبه صناعي لتقنيات الطّرس والمحو، مما يجعل من عمدة الكتّاب شاهدًا على مرحلة متقدمة في تاريخ الكيمياء التطبيقية في خدمة صناعة الوراقة والمَخطُوطَات.

ويأتي ماذكره القُنّوجي (ت١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) في كتابـه (أبجد العلـوم)، ليشـكّل مرحلة متأخرة وناضجـة في هـذا التيـار المعـرفي، إذ يضـع هـذه الممارسات ضمن إطار علم مستقلّ أسماه (علم قلع الآثار). ويعرّفه بأنه علمٌ يُقتدر به على إزالة الأدهان والصمـوغ والألـوان الصعبة من الثيـاب وغيرها، وأعظـم مـن ذلك: إزالـة الخط من الـوَرَق من غير كشـط ولا بقاء أثر. ويؤكد القنّوجـي أنّ هذا العلم مـن (أعظم الحِيَـل) حتى إنه يرى وجـوب كتمانه لمـا قد يفضي إليـه من إبطال الصكوك والسـجلات والوثائق. ويورد أمثلـة على مبدأ إزالة الأثر بضده، كإزالـة دبغ التـوت الشـامي بورق التـوت، ودبغ العنب الأبيض بالعنب الأسود وبالعكس، وهو مبدأ كيميائـي يعتمد على التفاعل بـين المواد المتماثلة أو المتقابلة في خواصها[٦٢].

***

وبذلك تتكامل نصوص الرازي، إلى ابن باديس، إلى القنّوجـي. في رسـم تاريـخ طويل لعلـمٍ دقيق ارتبط بممارسـة الوراقة وصناعة المَخطُوط، يقوم على تفكيك الأحبار، وتعديل أسـطح الرقّ والوَرَق، والتحكـم الكيميائي في آثار الكتابة. وتُسـاعد هذه الشـواهد في تفسـير كثير من حـالات الطّرس التي نعاينهـا اليـوم في المَخطُوطَـات الإسـلَاميّة، ومنها طروس صنعاء والقديسـة كاتريـن وغيرها، حيث تتجـلى آثار المحو المائـي والكيميائـي والميكانيكي على نحوٍ يكشف عمق هذا الإرث التقني وتنوّعه عبر القرون.

المَصَادر والمراجع

- الإشـبيلي، بكـر بـن إبراهيم ابـن المجاهد (ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م)، التيسـير في صناعـة التسـفير، تحقيـق: عبـد الله كنـون، [مجلة] صحيفة معهد الدراسـات الإسلَاميّة في مدريد، المجلـد السـابع والثامـن (مدريـد – ١٩٥٩-١٩٦٠م).
- بـن بادِيـس، المعز بـن باديس بـن المنصور الصنهاجـي (ت٤٥٤هـ/١٠٦٢م)، عُمْـدَةُ الكُتَّـاب وعُـدَّةُ ذوي الألبـاب في صفـة الخط والاقـلام والمِدَاد والليق والحـبر والأصباغ وآلة التجليـد، تحقيق: نجيب مايل الهروي وعصام مكية؛ ط١ (مشـهد: مجمع البحوث الإسلَاميّة – ١٤٠٩هـ).
- البعلبكـي، منـير (ت١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، المورد، قاموس عربي – إنكليزي؛ ط١٩ (بيروت: دار العلم للملايين – ٢٠٠٥م).
- بلوم، جوناثان ماكس (مؤرخ أمريكي)، قصة الـوَرَق، تاريخ الوَرَق في العالم الإسـلَاميّ قبل ظهور الطباعة، نقله إلى العَرَبيّة وقدم له وعلق عليه: أحمد العـدوي؛ ط١ (الرياض: دار أدب للنشر والتوزيع – ٢٠٢١م).
- بنبـين، طوبـي: أحمـد شـوقي ومصطفـى، معجم مصطلحات المَخطُوط العَرَبيّ (قاموس كوديكولوجـي)؛ ط١ (مراكـش: المطبعـة

(٦٢) القُنّوجي: أبجد العلوم ص٢/ ٤٣٤.

والوراقة الوطنية -٢٠٠٣م).
- البيروني، أبو الريحان مُحَمَّد بن أحمد الخوارزمي (ت٤٤٠هـ/١٠٤٧م)، تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة، السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية١١ (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية - ١٩٥٨م).
- التهانوي، مُحَمَّد علي (المتوفى بعد ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم واشراف ومراجعة: رفيق العجم، نقل النص: عبد الله الخالدي، تحقيق: علي دحروج، الترجمة الأجنبية: جورج زيناتي؛ ط١، سلسلة موسوعات المصطلحات العَرَبيّة والإسلَاميّة (لبنان: مكتبة لبنان ناشرون - ١٩٩٦م).
- الثعالبي، عبد الملك بن مُحَمَّد (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م)، لطائف المعارف، نشر: P. DE Lugdunum Batavorum: E. J.) JONC Brill - ١٨٦٧م).
- الجاحظ: عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام مُحَمَّد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي - ١٩٦٤م).
- جاسك، آدم (باحث كندي)، تقاليد المَخطُوط العَرَبيّ - معجم مصطلحات وببليوجرافية، ترجمة: مراد تدغوت، تقديم ومراجعة: فيصل الحفيان؛ ط١ (القاهرة: معهد المَخطُوطَات العَرَبيّة - ٢٠١٠م).
- ابن حجر: أحمد العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له: مُحَمَّد سيد جاد الحق (القاهرة: أم القرى للطباعة والنشر - بلا تاريخ).
- ابن أبي حميدة، أحمد بن أبي حميدة المطرفي (ت ١٠٠١هـ/١٥٣٩م)، تدبير السفير في صناعة التسفير، نشر: آدم جاسك، مطبوع ضمن: Manuscripts of the Middle East ٦ (هولندا: Ter Lugt Press - ١٩٩٤م).
- الخطابي، حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم البستي (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م)، غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي (دمشق: دار الفكر - ١٩٨٢م).
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، تقييد العلم، تحقيق: يوسف العش؛ ط٢(مصر: دار إحياء السنة النبوية - ١٩٧٤م).
- أبن خلدون: عبد الرحمن بن مُحَمَّد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر والمعروف بتاريخ أبن خلدون (القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني -١٩٩٩م).
- خياط، يوسف، معجم المصطلحات العلمية والفنية (بيروت: دار لسان العرب - ١٩٧٤م).
- دُوزِي، رينهارت بيتر آن (مستشرق هولندي) (ت١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)، تكملة المعاجم العَرَبيّة، نقله إلى العَرَبيّة وعلق عليه: مُحَمَّد سليم النعيمي وجمال الخياط؛ ط١ (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام - ١٩٧٩-٢٠٠٠م).
- ديروش، فرنسوا (مستشرق فرنسي)، المدخل إلى علم الكتاب المَخطُوط بالحرف العَرَبيّ، نقله إلى العَرَبيّة وقدم له: أيمن فؤاد السيد؛ ط٢ (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلَاميّ - ٢٠١٠م).
- ديورانت، ويليام جيمس (فيلسوف ومؤرخ أمريكي) (ت١٤٠١هـ/١٩٨١م)، قصة الحضارة، ترجمة: عبد الحميد يونس ومُحَمَّد علي أبو درة، سلسلة مكتبة الأسرة (القاهرة: شركة نهضة مصر للطباعة والنشر - ٢٠٠١م).
- الرازي، مُحَمَّد بن زكريا (ت٣١٣هـ/٩٢٥م)، زينة الكتبة، تحقيق: لطف الله قاري، مجلة عالم المَخطُوطَات والنوادر، المجلد السادس عشر، العدد الثاني (الرياض - ٢٠١١م).
- الريحاني: أمين (ت١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)، ملوك العرب (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي - ٢٠٢١م).
- السجستاني، عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث (ت٣١٦هـ/٩٢٩م)، المصاحف، صححه ووقف على طبعه: آثر جفري؛ ط١

(مصر: المطبعة الرحمانية – ١٩٣٦م).
- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، الدرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد مُحَمَّد الخراط (دمشق: دار القلم – بلا تاريخ).
- سيرة أبي علي بن سينا وشقيقه أبي الحارث، إعداد وتقديم: خيري عبد الجواد (بغداد: منشورات الجمل – ٢٠٠٩م).
- ابن سيده، علي بن إسماعيل (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، المُخصّص، سلسلة ذخائر التراث العَرَبيّ (بيروت: مركز الموسوعات العالمية – بلا تاريخ).
- الصَّغاني، الحسن بن مُحَمَّد بن الحسن (ت٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، العباب الزاخر واللباب الفاخر (حرف السين)، تحقيق: مُحَمَّد حسن آل ياسين، سلسلة كتب التراث؛ ط١ (بغداد: دار الشؤون الثَّقافيّة العامة – ١٩٨٧م).
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، الوافي بالوَفَيَات، باعتناء: سفين ديدرينغ (بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية – ٢٠٠٨م).
- الطبري: مُحَمَّد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب ٣٠ (مصر: دار المعارف – ١٩٦١م).
- عبود، نبيهة (باحثة عراقية مغتربة) (ت١٤٠١هـ/١٩٨١م)، تشكيل طروس القرآن ومَخطُوطَاته الأولى، ترجمة: سلام خير بك ونسرين قيدار؛ ط١ (بيروت: المركز الأكاديمي للأبحاث – ٢٠٢٥م).
- ابن العَديم، كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي الحلبي (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: المهدي عيد الرواضية، سلسلة النُّصوص المحققة؛ ط١(لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلَاميّ – ٢٠١٦م).
- عبدون، مُحَمَّد بن أحمد التجيبي (قتل:٥٢٩هـ/١١٣٤م)، رسالة ابن عبدون في الحِسبَة، اعتنى بتحقيقه: إ. ليفي بروفنسال، مطبوع ضمن كتاب: ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية – ١٩٥٥م).
- عواد، كوركيس (باحث عراقي) (ت١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، اقدم المَخطُوطَات العَرَبيّة في مكتبات العالم، سلسلة المعاجم والفهارس ٤٦ (بغداد: دار الرشيد للنشر – ١٩٨٢م).
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاريّ (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: المطبعة الأميرية – ١٩١٣م).
- القِنَّوجي، مُحَمَّد صديق خان بن حسن (ت ١٣٠٧ هـ/ ١٨٩٠م)، أبجد العلوم؛ الواشي المرقوم في بيان احوال العلوم، اعده للطبع: عبد الجبار زكار (دمشق: منشورات وزارة الثقافة

والإرشاد القومي – ١٩٧٨م).

- ابـن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، زاد المعـاد في هـدي خير العباد؛ ط٢٧ (بيروت، الكويت: مؤسسـة الرسالة، مكتبة المنار الإسلَاميّة – ١٩٩٤م).
- مسـلم، بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، المسـند الصحيح المختصر المعـروف بصحيح مسـلم (المنصـورة: مكتبة الأيمان - بلا تاريخ).
- المُنَجِّد، صَلاح الدّين (ت١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، دراسات في تاريخ الخط العَرَبيّ منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي؛ ط٣ (بيروت: منشـورات دار الكتاب الجديد – ١٩٧٩م).
- ابـن منظـور، مُحَمَّد بن مكـرم الأنصاري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب؛ ط١ (بيروت: دارصادر - بلا تاريخ).
- ابـن النديم: مُحَمَّد بن إسـحاق (ت ٣٨٥هـ/ ٩٦٨م)، الفهرسـت، عـن: غوسـتاف فلوجل (لايبزيـج: F.C.W Vogel- ١٨٧٢م). وطبعة أخـرى: بتحقيـق: رضـا تجـدد (طهـران – ١٩٧١م). وأخـرى: (بـيروت: دار المعرفـة – ١٩٧٨م). وأخـرى: قابـل أصولهـا وأعدها للنـشر: أيمن فؤاد السـيد، سلسـلة النُّصوص المحققـة؛ ط٢ (لندن: مؤسسـة الفرقان للتراث الإسلَاميّ -٢٠١٤م).
- أبـو نعيـم الأصفهاني: أحمد بـن عبد الله (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، حليـة الأوليـاء وطبقات الأصفياء؛ ط٤ (بـيروت: دار الكتاب العَرَبيّ – ١٤٠٥هـ).
- ابـن هشـام: عبـد الملـك الحمـيري (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، سيرة النبي المعروفة بسيرة أبن هشـام، تحقيـق: مُحَمَّد محـي الدين عبد الحميـد (القاهـرة: مكتبة مُحَمَّـد علي صبيح وأولاده - ١٩٦٣م).

المَصَادر الأجنبية:

- Hilali, Asma: The Sanaa Palimpsest: The Transmission of the Qur'an in the First Centuries AH (London: Oxford University Press – 2017).
- 43 - New Light on Old Manuscripts The Sinai Palimpsests and Other Advances in Palimpsest Studies, Edited by: Claudia Rapp, Giulia Rossetto, Jana Grusková, Grigory Kessel, Proof Reading: Judith Ryder (English), Florence Hetzel (French) (Vienna: Austrian Academy of Sciences – 2023).
- The New Encyclopaedia Britannica Chicago–1989–
- Powell, Eric A: RECOVERING HIDDEN TEXT, (Archaeology Magazine) (https://archaeology.org).